مسرح وسينما

غروب الأندلس

تأليف : الأستاذ عزيز أباظة
إخراج : الأستاذ فتوح نشاطى
تمثيل : الفرقة المصرية

للأستاذ على متولى صلاح

كان خيرا كبيرا لو عرضت هذه المسرحية على الناس قبل حركة الانقلاب لا بعدها ، إنها كانت تكون عندئذ « سابقة » لأوانهـا وليست « بعد » أوانها كما هي اليوم، فهي تصور الفساد الذى استشرى فى دولة العرب بالأندلس والانحلال الذى دب فى أوصالها مما يشبه إلى حد كبير الحال التى كانت بمصر قبل الانقلاب . ولو أنهـا عرضت قبل هذا الانقلاب لكانت إرهاصا له أو عاملا من عوامله، ولكان لعرضها شأن غير الذى لهـا اليوم ، ولكن القطار فاتها !

كنا نود جاهدين أن نسمع — والملك فى أوج طغيانه وجبروته — من يقول : —

الملك يلهو والحوادث حوله   متظاهرات والخطوب سراع
والقصر تفهق بالخنا قاعاته   ويبيت يروى إثمها ويذاع
والحكم فوضى .. لبه وقوامه   ذمم تسام — رخيصة — فتباع

وكنا نود جاهدين أن نسمع أن الملك المطلق الشان يقول لأمير الجيش عن الجيش : —

هو جيشى ألست مولاه ؟ ؟ فيجيبه أمير الجيش فى كبرياء بقوله : —

كلا ... ليس مولاه من سقاه السماما
واجتبى الناشقين منه الأذلين ونحى أبطاله الأعلاما

وكأنما الشاعر كان يطل على نافذة الغيب فيعلم ماقيل تماماً بعد أيام معدودات ! . . ولا أدرى سبب ذلك الاهمال والشاعر يؤكد أن الرواية كلها كتبت قبل يوم ٢٣ يوليو الماضى !

أما أن تعرض هذه المسرحية التى تصور « الغروب » بعد أن يبدأ عندنا « الشروق » — وأعنى به طبعاً حركة الانقلاب ... فقد جعل المسرحية ظلا للحركة الكبرى التى يعيش الناس فيها ، أو صدى للصوت القوى الذى يملأ أسماعهم ، ومن وجد البحر استقل السواقيا !

على أن المسرحية لم تخل — على الأقل — من تعديل كبير أصابها بعد حركة الانقلاب أريد به « تمييز » بعض الحوادث ، والإشارة إلى مايزحم قلوب الناس من عواطف ؛ فالأستاذ المؤلف مثلا كان قد ألف مسرحيته « شجرة الدر » عام ١٩٥١ م وقال فيها موجهاً الكلام إلى « أقطاى » أمير الجيش بصريح العبارة :

... ولكن السياسة مهنة   إذ واتها جيش هوى وتحطما
«أقطاى» دع ما لست تحسنه إن   عرك الأمور وساسها فتعلما

فإذا به اليوم فى مسرحية « غروب الأندلس » يجعل « أزبك » أمير جيش مصر يقول عنها — فيما سمعناه من الممثلين — بصريح العبارة :

إذا أهل السياسة ضللوها   فإن الجيش يهديها السبيلا !!

وليته لم يفعل فإن الفن يجب أن يحتضن الحقيقة المبذولة بين أيدى الناس ويسمو بها ويكون أبعد منها شأواً . لا أن تحتضنه الحقيقة بين جناحيها وتجعل منه — كما قلت — ظلا أو صدى لها

وأنا أقرر — قبل أن يتشقق الحديث — أن الأستاذ عزيز أباظة شاعر من أكبر شعرائنا ، وأن الأمل المرجو منه كبير ، ولكننى لا أتحدث عنه شاعراً وإنما أتحدث عنه مؤلفاً مسرحياً ، وليس الشعر — كما يعلم القراء — غاية فى المسرح وإنما هو وسيلة ، والوسيلة التى

لا تصل بصاحبها إلى الغاية ، أو التي تكون حائلا بينه وبين الوصول إلى هذه الغاية ، أو التي تستنفد كل جهده فينبت من الوصول إلى الغاية ، وسيلة يجب تحطيمها . والمسرح اليوم يقوم — في العالم كله — على نظرية «الحائط الرابع» فما هذه النظرية وما أصلها ؟ أصل هذه النظرية افتراض أن الشاهد عند ما ابتاع تذكرة الدخول إلى المسرح أخذ على مؤلف المسرحية عهداً بأن يعرض عليه جوانب من الحياة كما هي لا كما يتخيلها الفنانون! ... إن الشاهد الحديث رجل فيه فضول كثير ، إنه يريد أن يستطلع أحوال الناس وأخبارهم ، فهو ينظر إلى خشبة المسرح نظره إلى غرفة حقيقية في منزل حقيقي بها ناس حقيقيون يناقشون مسائلهم الحقيقية ، وليسوا ممثلين مهرة تزيفون له الحياة ويجملون الخيال حقيقة ، فيجب إذن أن يزول ما بينه وبينهم من حائط يحجبهم عنه ، ذلك الحائط الذي يحول دون رؤية ما يقع في بيوت الناس ، والذي نسميه نحن الستار ! فإذا ارتفع فقد ظهرت الحياة حقا وصدقاً ! ظهرت مناظر حقيقية وإضاءة حقيقية وموضوع حقيقي أو في حكم الحقيقي ، وأنه حقيقية مما تجري بين الناس فعلا في حياتهم العادية المألوفة

هذا هو المسرح منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم ، منذ (هنريك إبسن) . (برنارد شو) ومن جاء بعدهما . فأين «غروب الأندلس» من هذا ؟

لقد صاغها الشاعر عزيز أباظة الشعر الجزل الرصين ولم يكن يستطيع إلا أن يصوغها بالشعر ؛ فالشعر فيه أصل وطبيعة غلابة ولكن لمن صاغها بهذا الشعر الجزل الرصين؟ من من الشاهدين يقدر على فهم مثل قول الشاعر عن الإسلام مثلا : —

تكاد عراق الجزيرة تنضوي وتقتد أشطان له وطنوب !

ومن من الشاهدين يقدر على فهم قول الشاعر في خطاب موسى إلى الملك مثلا :

إذا ند عنك اليوم بارح كيدهم فإنك مدروس غدا فتبير

وإن مطاياهم لتكرم وسقا فإن أبلغتهم جدلوها وعقروا

أو مثل أقواله (ولأنت من قوم إذا اناطر القنا) أو (هل كان إلا صدى ضعف خذئت له) أو (لآزروا الموت قعصاً) أو سوى ذلك وهو كثير وكثير

ولأول مرة نرى مسرحية تذيل صفحاتها بشرح لمعاني الكلمات الصعبة مما برئت منه حتى مسرحيات شوقي ! وإذا كان القراء وهم يقرءون في مهل وأناة ، وهم إلى ذلك الصفوة المختارة من الشاهدين ، فكيف بالشاهدين الذين يستمعون الأقوال وهي تمر بهم مربعة خاطفة ، ثم هم أخلاط من الناس لا يشترط فيهم إلا أن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول ؟ .. إن للشعر مكانه العالي في الغنائيات والملاحم وما إليها ؛ أما المسرح الذي يراد به تصوير الحياة والأحياء، والذي هو مدرسة للناس جميعاً، فليس لمثل هذا الشعر العالي فيه مكان . وإذ كان لابد من الشعر في المسرح — وهو ما لا أراه — فليكن شعراً مخففاً ممزوجاً بالماء ، شعراً سهلا ميسوراً يفهمه الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعا يشاهدون المسرح أو يجب أن يشاهدوه ، ليكن من بحر «الرجز» دون سواه وهو البحر الذي يقابل تفعيلات «الأيامب» عند الأوربيين يوم كان لا يزال مسرحهم يقول شعراً ! أما اليوم فقد خفت صوت الشعر في مسرحهم خفوتاً كبيراً ولم يبق فيهم إلا مثل (ت . س . إليوت) وهو رجل متشائم حزين ضيق بالحياة يحن إلى يوم الخلاص منها يقول فيما يقول (نحن أشكال بلا قوالب ، نحن ظلال بلا ألوان ؛ نحن قوى مشلولة ، نحن إشارات بلا حركة .)

وأريد أن أدفع وهما قد يتبادر إلى بعض الناس من أن شهود جمهور الناس لمثل هذه المسرحية دليل على وعيهم وارتفاع مستواهم ، فهذا قول مردود ؛ لأن مثل هذه المسرحية — بما احتشدت به من العظات والخطب والحكم التوالي — إنما تخاطب في الناس غرائزهم الأولى وعواطفهم المجردة ، عواطفهم الدينية والوطنية والخلقية

وما إلى ذلك ، إنهم لا يتعمقون فهمها واستكناه بواطنها ولكنهم يفهمونها فهما عاما كله ضباب وظلام ، إنهم يرقصون من جرس ألفاظها كما يرقص الزنوج تماما على دقات الطبول ، وليس هذا من وظيفة المسرح فى شئ !

والمسرحية تدور حول الأيام الأخيرة لدولة العرب فى الأندلس ، وليس فيها موضوع متصل يسرى فيها وينفخ الحياة فى جوانبها ، ولكنها صور متلاحقة متتابعة — وإن كانت قليلة إلى جانب ما يكتنفها من كلام كثير — تتعاقب وتترى كما تقلب تماما صفحات من كتاب فى التاريخ .. الأميرة « بثينة » تغرى الأمير « يحيى » بإطلاق السجناء من ذويها ، فيطلق الأمير هؤلاء السجناء ، ثم يجتمع هؤلاء الطلقاء ويجنحون إلى « بنى سراج » فينضمون إليهم ، ويتكالبون على الملك ، ثم يعتزل الملك ملكه ؛ ثم يتولى ابنه ؛ ثم ثم ثم الخ ؛ وتنسدل الستارة فى نهاية كل فصل ببيت من طراز الخطب المنبرية التى تصفق لها الجماهير طويلا ، فينتهى الفصل الأول — مثلا — بقول الشاعر :

من لم يدعم بالأسنة ملكه والحزم ... بات مفزعا لم يسلم !

وينتهى الثانى بقوله :

فإن تدر الأقدار فالصبر جنة وإن تكبر الأحداث فالله أكبر !

وينتهى الثالث بقوله :

واضيعة الإسلام إن لم تقهروا أهواءكم ... واضيعة الإسلام

وهكذا تمضى المسرحية وكأنها ديوان شعر ، فلا نرى موضوعاً ينبض بالحياة ، ولا نرى شخصيات قد رسمها لنا المؤلف رسماً تبدو ملامحه وقسماته فى وضوح وامتياز ... لقد عالج شكسبير المسرحية التاريخية ولكنه استطاع فى مسرحية « هنرى الرابع » مثلا إلى جانب الموضوع القوى أن يخلق لنا شخصية « فولستاف » الحية الممتازة التى تجمع بين الجد والفكاهة جمعا بلغ الذروة فى كل منهما ، واستطاع فى مسرحية « يوليوس قيصر » أن يخلق لنا شخصية « بروتس » الخالدة التى ما انفتأت تثير فى النفوس عاطفة الانتقام .. ولكن شخصيات عزيز أباظة شخصيات باهتة لا نعرف لها ملامح ولا قسمات ولم يلق الأستاذ عليها من الأضواء ما يجلوها للناس ، بل لم يلق باله إليها إطلاقاً وإنما كان كل باله إلى الشعر دون سواه ، على أن شاعرنا الكبير يقع فى أمور كنت أود ألا يقع فيها ، فهو يقول « أخ الملك النوى » والصواب أن يقول « أخو الملك النوى » ويقول « ركبنا الهوى والأثام الشنيعا » يريد الإثم ، وليس الأثام هو الإثم وإنما جزاء ذلك الإثم والله يقول « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً » وغير ذلك مما لا يجوز من شاعر كبير كالأستاذ عزيز أباظة .. ولو أن الأستاذ عنى بمحادثة الغرام الحقيقى بين بثينة ومحمد بن سراج والغرام الوهمى بينها وبين الأمير « يحيى » لجعل منه مسرحية ، ولو اختزل شيئاً من حوادث التاريخ واستبدل به صورة حية أو صورتين تنبضان بالحياة لخلق لنا مسرحية ، ولكنه لم يفعل ! وأشهد لقد أنفق الممثلون مجهوداً جباراً شديداً . ولقد كنت أشفق على « أمينة رزق » وهى تبذل من ذات قلبها ومن ذات نفسها لتنفخ الحياة فى دورها واستطاعت ذلك إلى حد كبير رغم العقبات اللفظية التى كانت تنوء بحملها ، وأشهد لقد استطاع « فؤاد شفيق » واستطاع « حسين رياض » أن يلونا كلامهما ويملآه بالحياة والمعانى ، وقد كان دور ثانيهما مما لا ينبض به إلا أولو العزم . أما « فردوس حسن » فقد كانت جامدة كالتمثال وتأبى إلا أن تكون أميرة فى كل الأوقات ! ونسيت أنها كانت تقوم بدور العاشقة المخادعة الخاتلة !

وبعد : فهذه كلمة عابرة فى مسرحية « غروب الأندلس » وليس الذى سقناه فيها بمانع أن ننوه بما ينفق الأستاذ عزيز أباظة من جهد حميد للشعر والأدب ، ولكننا نريده للمسرح أيضاً . إن الشعر أفضل ما فيه ، فهل يجمع إليه الفن المسرحى الذى هو اليوم جماع الفنون جميعاً ؟ وعند ذلك تسقط حجتنا ولا نستطيع أن نقول له يومئذ ما نستطيع أن نقوله له اليوم من أن إلهة الشعر قامت عن ميامنه ولكن ربة المسرح لم تقم عن مياسره ؟

على متولى صلاح